مكتبة الرصيف

البحـــث عن الحقيقـــة علـــى أرصفـــة الشـــوارع!

بغداد/ صافي الياسري

كنا نعرف ما نسميه اليوم (مكتبة الرصيف)، على ارصفة شارع المتنبي البغدادي وسوق السراي وحسب، حيث يفترش باعة الكتب الرصيف، ويعرضون بضاعتهم من كتب في الادب والشعر –الرواية والمسرحية والقصة، وفي الفلسفة والاجتماع والدين والسياسة والعلم والتكنولوجيا والطب، وحتى مجلات بردا الفرنسية المتخصصة بالازياء والحياكة، والصحف القديمة، وكل ما يخطر لك ببال ولا يخطر، وكانت الحركة في هذا الشارع كما هو معروف لدينا نحن رواده المخضرمين، تشتد يوم الجمعة، فمن باحث عن كتاب معين في مجال اختصاصه، كدارس او تدريسي، او محب للاطلاع، الى بائع محتاج، ربما عرض مكتبته الشخصية كلها للبيع، وقد حدث ذلك عدة مرات،

ومع شخصيات ادبية معروفة ابان التسعينيات، من القرن الماضي، ايام الحصار الذي فرضه النظام المباد على العراقيين تزامنا والحصار الدولي على العراق، فاذاقهم الوان الحرمان والتجويع، ويوم كان راتب اكبر موظف لا يكفي لشراء عدة علب سكاير، يوم غادر العراقيون عراقهم فاقة.. كما يغادرونه اليوم خوفا. وكنا نتحلق حول تلك البقعة الارضية التي يعرض فيها البائع كتبه بنسق مقصود، فالكتب المتداولة سريعة الحركة اقرب الى المشتري، والكتب الخاصة، ذات الطلب الخاص والسعر الخاص اقرب الى البائع، اهتماما بها، وكانت هناك كتب (مضمومة) تكاد تكون سرية او هي كذلك، وهي لاتباع الا للمعارف الموثوقين، وهذه كلها ليست اصلية كما يقول الباعة، وانما استنساخ، وكم تعرض الباعة بسببها لمشاكل جمة مع اجهزة امن النظام المباد التي كانت تراقب بيع وتداول مثل هذه الكتب الممنوعة رسميا، والتي كانت تدخل البلد بطرق سرية، ولكن مكتبة الرصيف هنا وفي هذا الشارع، لا تاتي نشازا على المشهد العام له، فالشارع كله لا يبيع الا الكتب، وليس فيه سوى المكتبات ومجلات القرطاسية، ولذا لم نكن نفردها عنه، وانما كنا نعدها جزءا من كل، وحتى الزبائن الذين اعتادتهم واعتادوها، هم من النخبة المثقفة، ومن الطلبة والمعلمين والمدرسين والاساتذة، وفي هذا الشارع يختفي التمييز الجنسي والطبقي والاجتماعي، ولا يظهر الا تباين الرغبات والهوايات والانتماء الفكري، ومكتبة الرصيف هنا غير معزولة عمليا عن الشارع ايضا بسبب وجود (مخزن) خاص بها، وان كان في (الخلفيات) كما يسمونها، اي في اماكن غير بارزة، والسبب هنا (تجاري) بحت، فالبائع لا يجد فرصته في المخزن في موقعه الخلفي للتواصل مع الزبائن، ولهذا يضطر الى حجز موقعه على الرصيف، وبالاتفاق مع اصحاب المكتبات ومحال القرطاسية المطلة على الشارع، وربما دفع اجرا لقاء ذلك، او ان صاحب المكتبة يشغل على الرصيف من يعمل عنده بأجر، والبائع هنا ثابت المكان ولا يغيره لاي سبب كان، حتى موظفو البلدية وامانة بغداد الذين اعتدنا حملاتهم، لمنع التجاوز على الارصفة، يتعاملون مع باعة الكتاب في هذا الشارع على اساس ان الرصيف كظاهرة حضارية وليس تجاوزا مقيمين طابع الشارع التاريخي وهويته الثقافية، وعدوهم الوحيد هنا كما يقولون، هو المطر، فهو لا ينقع كتبهم وحسب، بل يطرد عنهم الزبائن، وقد احتاطوا له بتغطية الكتب بطبقة من النايلون الشفاف، حتى يتمكن الزبون من استعراض عناوين الكتب، لكنهم لاحيلة لهم في حماية الزبون من زخات المطر.

ويقول البائع –جاسم الشمري– (احد قدماء باعة مكتبة الرصيف في شارع المتنبي): ليس المطر وحده عدونا، فهو بالاضافة الى تمكننا من مواجهته ومعرفتنا به، لا ياتي في العام الا اياما قلائل، ونحن نواجهه بنفس التحدي الذي نواجه به تقلبات المناخ، فالعواصف الترابية وحرارة تموز وآب تفعل فعلها في قمع حركة الشارع

ولكن هناك هم مضاف نواجهه، هو هم (لصوص الكتب) واذا كان هناك محترفون في هذا المجال نعرفهم ونكافحهم ونخضعهم لرقابة مشددة، فاننا لا نملك وسيلة للتعامل مع بعض المثقفين ومنهم مشهورون، وهم يسرقون او يحاولون سرقة او استبدال هذا الكتاب او ذاك، وحين ياخذ الكتاب ويمضي، ونلاحقه لاسترجاعه يدعي انه نسي ان يدفع الثمن، وهؤلاء الهواة اهم اساليبهم المتجددة، وفي اغلب الاحيان ينجحون معنا، ذلك ان مظاهرهم لا توحي بنياتهم، وتجعلنا نغفلهم ولا نضعهم في الحسبان.

البائع خلف رويهي –سوق السراي

–يقول: تسال عن الكتب الرائجة هذه الايام واقول لك نحن هنا لم يختلف مؤشر الطلبات كثيرا عندنا، فزبائننا هم مثلا من الادباء، وهؤلاء يسألون عن الاصدارات الجديدة في ميدان الشعر والنقد والرواية والقصة والمسرح والفلسفة، ونحن نزود هؤلاء بما تضخه لنا مطابع بيروت، وفي هذا المجال يبقى ميدان الكتب المترجمة هو الغالب، ويأتي الينا الطلبة، وهم يبحثون عن (الملازم المساعدة) لدروسهم ومن جميع المراحل الدراسية وكذلك هم يبحثون عن القرطاسية الرخيصة والكتب والمراجع التي يؤشرها لهم اساتذتهم، اما الطلب العام فهو مختلف بحسب اختلاف الجنس والعمر، ولكن ما زالت الفتيات والنسوة يطلبن كتب نوال السعداوي، وما زال المراهقون يطلبون اشعار نزار قباني وكتب الرسائل الغرامية، وهناك طلب متصاعد ومن الجنسين ومن جميع الاعمار على الكتب الخاصة باستخدامات الكومبيوتر ومازال هناك بعض كبار السن من يبحث عن كتاب (رجوع الشيخ الى صباه).

وخروجا على الطلب العام، او توافقا معه ومع الظروف السائدة، يبرز طلب هنا وهناك على كتاب يعالج قضية سياسية او اجتماعية ساخنة، كما حصل في الطلب على كتاب السفير الاميركي السابق بول بريمر (سنتي في العراق) الذي استنسخناه ونفدت الكميات التي عرضناها بسرعة، وكان الطلب عليه شبه عام، وهناك ارتفاع في الطلب على الكتب الدينية عمره بدأ مع سقوط النظام المباد، وبخاصة كتب الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله، ونحن نبيع هنا القرطاسية وملحقاتها ايضا، وهذه الصفحة في عملنا لم تتغير، لكنني لا انكر تاثير الوضع الامني وساعات العمل القليلة التي نشغلها في اليوم، وحرماننا من يوم الجمعة يومنا المشهود، اما واردنا اليومي، فهو مستور والحمد لله، لكنه فقد انتظامه القديم، ومع ذلك فان يوما يعوض الاخر.

عبد الزهرة فرج –معلم مدرسة ابتدائية في مدينة الصدر –احد الرواد الباحثين عن بهجة الكتاب كما يصف نفسه ويقول: انا هنا بحثا عن الكتاب الذي يغني معلوماتي ويوسع معارفي ومداركي، ومنذ وعيت قيمة الكتاب وانا آتي هنا، واعتقد اني بعد سقوط النظام شهدت ثورة في عناوين الكتب المعروضة سواء في مكتبة الرصيف او في المكتبات الاخرى، حتى اني صرت اتردد مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع، استجابة لشهوة الكتاب، ورغبتي في سد نواقص مكتبتي الشخصية، انهم يعرضون اليوم عناوين كنا نحلم بها، لقد كنا محاصرين ثقافيا زمنا طويلا، واليوم نشهد الحرية في الميدان المعرفي والثقافي والعلمي على الرصيف.

–السيدة خديجة مراد –ربة بيت ترافق ابنتيها القادمتين بحثا عن ملازم تخص علوم الاحياء والانجليزية الخاصة بالدراسة الاعدادية –تقول: منذ اكثر من اربعين عاما ونحن نرتاد هذا الشارع ونشتري منه الكتب والمستلزمات المدرسية، وباعة الرصيف اقرب الينا من اصحاب المكتبات المعروفة، فهم يبيعون بسعر ارخص، وتعاملهم اكثر لينا، ولم يتغير الكثير في الوضع ولكننا نشاهد اليوم كتبا كانت ممنوعة في السابق، ونحن ورثنا حب الكتاب عن رب اسرتنا –المرحوم زوجي– الذي كان ياتي الى هذا الشارع كل يوم جمعة ويعود الينا محملا بالكتب ويحدثنا عنها ويحبب قراءتها الى نفوسنا، ويحمل لنا ايضا ما يحتاجه الاولاد من الملازم المساعدة في الدراسة والقرطاسية اللازمة كل بداية عام دراسي جديد، الامور لم تتغير كثيرا ولكن الظروف الامنية جعلت ترددنا على هذا الشارع مختصرا.

جليل عبود ناصر – بائع كتب في شارع ٢٠ في البياع – يقول: انا ابيع الكتب منذ ١٥ عاما وقد انتقلت الى هذه الزاوية من شارع المتنبي حيث كان والدي رحمه الله يبيع الكتب هناك، وكانت المنطقة بحاجة الى اختصاصي، كما انها تتفق مع ظروفي كوني سكنتها، وكما تشاهد فنحن هنا نعرض الكتب التي هي دائمة الحركة، اضف اليها تلك التي نشأ عليها طلب جديد مثل كتب (المسجات) او ادب الموبايل اذا صح التعبير (الجوال) وهي تحوي دارميات غرامية واخوانيات وغير ذلك مثل– دك روحه ست مرات وانكلب هزاز – جوالي هم شيطان يعرفكم اعزاز–، وطرف ونكات خاصة بالرسائل القصيرة ورسائل المناسبات وهي باللغتين العربية والكردية وبعضنا يعرض كتبا من هذا النوع بالتركمانية والسريانية ايضا وكل ما تطرحه المطابع في هذا المجال، كما ان هناك طلباً كثيراً على دواوين الشعر الشعبي، وبخاصة مجاميع مظفر النواب وعريان السيد خلف واخرين، وهناك الكتب الدينية وكذلك الادعية وقصائد المراثي الحسينية، كما نبيع القرطاسية وصور المراجع الدينية وعبد الكريم قاسم والعلم العراقي المطبوع على ورق خاص باحجام مختلفة حسب الطلب، اما الوارد اليومي فهو جيد جدا وافضل من ايام زمان برغم تاثرنا بالوضع الامني وقلة ساعات العمل وايام منع التجول الكثيرة.

رشيد حواس السوداني –بائع كتب في ساحة التحرير يقول: ما ذكرته عن نوع الطلبات صحيح فنحن هنا ايضا نعرض ونبيع كتب (المسجات) الخاصة بالجوال، ورسائل الغرام، والشعر الشعبي والادعية الدينية وكيفية تعلم اللغات الاجنبية والملازم المدرسية والقرطاسية وصور المراجع وكتب المراثي الحسينية ودسكات الموالد النبوية وحفلات الذكر ونبيع اشياء اخرى لها علاقة بالكتب، كالمحافظ والالبومات، ومشكلتنا هنا ليست اللصوص فقط وانما في عمليتي (التفتيح والتعزيل) فالمخزن الذي نأتي منه بكتبنا واغراضنا بالعربات اليدوية، بعيد عن هنا، ونستغرق وقتا لترتيب الكتب واعادتها، بينما الوقت الذي نشتغل فيه وساعات العمل والاقبال على الشراء والحركة كلها في ساحة التحرير محدودة، ونحن نعاني في احيان كثيرة من الاجراءات الامنية التي تمنعنا من العمل على الرصيف بسبب وضع طارىء او بسبب مزاج الشرطة المسؤولة عن امن المنطقة، او مزاج (العصابات) التي تفرض (الاتاوة) على عموم باعة الرصيف هنا وهنا الخوف الدائم من ان يضع احدهم كيسا مملوءا بالمتفجرات فيحصد المئات قتلى وجرحى كما حصل قبل أيام في ساحة الطيران حيث راح المئات من عمال المسطر ضحية تفجير ارهابي اجرامي، وهناك الهموم اليومية الاخرى، فبعض الزبائن، يخاصمك لانك تعرض الكتب التابعة للطائفة الفلانية الى جانب الكتب التابعة لطائفة اخرى ولا ينفع معهم قولنا اننا نريد رزق الله لاغير، وبعضهم يهدد باستعمال القوة مما يجبرنا على اخفاء بعض الكتب والكراسات والدسكات وسحبها من العرض وعدم اظهارها الا لمن يسأل عنها ولا يثير الريبة او الشك.

وثمة ملاحظة نود ذكرها هنا، هي ان اغلب باعة واصحاب مكتبة الرصيف لا يعرضون ولا يمتهنون بيع الصحف، وعند سؤالنا عن السر، قال احدهم: ان باعة الصحف مجموعة اخرى تختلف عنا، فهؤلاء لهم خبرتهم المختلفة والخاصة، وهم ينهضون في الصباح الباكر للذهاب الى (بورصة الصحف) وهم يعرفون الموضوع الذي يشد الناس والصحيفة المقروءة ولهم مواقعهم المحددة بدقة على وفق مناطق الحركة والوقوف والتجمعات والاسواق، واصحاب مكتبة الرصيف يجدون في بيع الصحف وإرجاعها ومشاكلها، وجع رأس هم في غنى عنه ومع ذلك يمارسه بعضهم وهم قليلون.

و اخيرا فان مكتبة الرصيف بهمومها الخاصة، ومتاعبها القديمة والمستجدة، وحركتها الراهنة تشكل مؤشرا مهما مضافا الى مؤشرات اخرى مهمة ايضا تبين الوجهة التي تمضي اليها حركة العقل العراقي العام وهو يسعى لتوسيع مداركه الفكرية والثقافية والعلمية وسد احتياجاته المعرفية الاخرى.

ساحـــة الطيـــران ... ذاكـــرة للـــموت

بغداد/ محمد شفيق

فجأة تومض السماء، وتنبعث رائحة الموت من الأرض، وتتناثر الشظايا، وتتناثر الأشلاء، ويعلو العويل، وتتسارع سيارات الإسعاف وشرطة النجدة، وعربات المارة، وأيدي أهل النخوة والشيمة، برفع الأشلاء، أشلاء عمال بانتظار فرصة لاستثمار أذرعهم، لكسب قوت يومهم، وسد رمق أطفال، في الطريق هم، ليلاقوا آباءهم عند العصر، وقبل حلول الظلام، أشلاء بائع الشاي، وهو يزق الصحو في أقداح، وينحنح، وهو يبسمل ليواجه يوماً جديداً، أشلاء بائع الفلافل الملطخة يداه بدهن الحصة، أشلاء بائع الصحون وهو يواجه فرناً آخر على غفلة من الزمن. أشلاء عابر سبيل ذاهب الى كنسية الأرمن الارثوذكس، ليؤدي صلاة المحبة على كل الحاضرين في أرض السواد، أشلاء فتاة تروم الوصول الى الزعفرانية، أو مريض يريد ان يتشافى في مستشفى ابن الهيثم، أشلاء وأشلاء وأشلاء، دماء في كل مكان من ساحة الطيران، قرب جدارية فائق حسن، أشلاء السيارة المفخخة، وبقع دم، تدير حمامات فائق حسن وجهها لتبكي كل هذا في هذه الصبيحة المغبرة، هذه الصبيحة المطرزة بالموت الزؤام، صبيحة يوم الثلاثاء ١٢/١٢/ ..٢٠٠٦ الحياة تبدو في ساحة الطيران كأنها تريد معاندة الحياة، لكن البقية الباقية من العمال والباعة والكسبة سرعان ما يعيدون الحياة الى الساحة. سرعان ما يمسحون الدموع ويمسكون بالمعاول والمكانس، ينظفون الساحة من بقايا الموت المؤطر بتلك السيارة المشؤومة بعد ساعة أو اثنتين أو ثلاثاً نجد الحياة من جديد، كل شيء يعود الى مكانه، انه الاستئناف الذي هو ديدن العراقي في كل الظروف الصعبة.

احد العمال وقد نجا باعجوبة من ذلك الموت قال: هذا أسلوب قدر في التعامل مع الابرياء، أسلوب جبان، ان تفجر سيارة عن بعد وتقتل الابرياء.

كان يتكلم وعنده اصرار على مواصلة الحياة، برغم كل شيء، برغم كل ما يجري لقد ايقن هذا المواطن البسيط، ان الحياة تسير، ولا يوقفها شيء امام العنف والقتل والإرهاب، فلن يزيد الناس، الا هذا الاصرار على المواصلة.

امراة واقفة قرب جدارية فائق حسن، تبكي بصمت، اقتربت منها، وسألتها: هل لديك احد في هذا الانفجار.

اجابت دون ان تنظر في وجهي: كل هؤلاء ابنائي، لا فرق عندي بين ابنائي وبين هؤلاء.. اشتد بها الغضب قائلة:

لماذا يموتون بهذه الطريقة، ماذا يريد منّا صدام، حتى بعد رحيله يريد ان يوزع الموت على ابنائنا؟!

مواطن آخر قال: هؤلاء لا يحملون اية ذرة من الإنسانية، هم ليسوا من الاسلام ولامن أي دين. هم مجرمون وقتلة ومن اعوان المدحور صدام، وان شاء الله النتيجة النهائية لصالح هؤلاء الأبرياء، ويبقى صدام اسود الوجه، تطارده اللعنة في الجانب الآخر من ساحة الطيران، بمواجهة الطريق القادم من الخط السريع باتجاه الباب الشرقي، كان الباعة يمارسون اعمالهم، عربات البالات، وبائعو الصحف، وبائعو الحاجة بـ(٢٥٠) ديناراً، وبائع التكة، وعشرات الحاجات الاخرى.

جبار خلف يبيع ملابس البالات في عربة مكشوفة قال: انا هنا منذ أكثر من ثلاث سنوات، ولا أغادر مكاني وكل ما يفعله هؤلاء الأوغاد، هو (رفسة الموت).

وطالب احد المواطنين الصحف بأن تكتب عن قناة الزوراء وتمنع بثها، لانها تنشر السموم بين الناس، وتدعو للطائفية والقتل، واضاف: هذه ليست ديمقراطية ان تترك قناة فضائية تدعو للقتال بين المواطنين، انها الفوضى بعينها.

واستمر الحديث مع هؤلاء المواطنين، وكأنهم يمتلكون مفاتيح التغيير والاصلاح.. نعم الحياة من صنع هؤلاء الذين يؤمنون باستمراريتها وليست مع اولئك القتلة الذين يقتنصون لحظة غفلة، وينثرون موتهم بين الابرياء!

الآثـــار العراقيـــة في قبضـــة اللصـــوص والمـــافيـــات العالميـــة..

بغداد / المدى

لقد ابتلعت ظاهرة سرقة الآثار في العراق ابان سقوط النظام السابق حكايات وقصصا وتماثيل وقطع آثارية لا تقدر بثمن تحكي سيرة حضارة بلغ عمرها آلاف السنين وكغيرها من الظواهر التي أفرزها زلزال ٢٠٠٣ لم تلق الاهتمام من قبل الجهات المعنية بما في ذلك منظومة الاعلام التي اعتمدت في تقصي حقيقة السرقات الآثارية في الاغلب على مصادر خارجية برغم من أن الاشكالية ذات شأن محلي عراقي، فلا يخفى على كل ذي علم وبصيرة ان بين اهم الاسباب الرئيسة هو ان أكثر المؤسسات في هذه القضية أو تلك تتعاون مع وسائل الاعلام الخارجية بمختلف أشكالها ولا تبدي التعاون ذاته مع الاعلام العراقي لذلك يلجأ الاخير الى تلك الوسائل للبحث عن قضيته المحلية!... نسوق هذه التوطئة لاننا بعد نقاشات واستعدادات قررنا أن نجري تحقيقا عن آثارنا العراقية المسروقة لا الآثار الصينية!!وفعلا حددنا الخطة ووضعنا المحاور لاجراء هذا التحقيق وانطلقت بنا سيارة الصحيفة الى كرخ بغداد حيث يقع المتحف الوطني العراقي والهيئة العامة للآثار والتراث، استقبلنا الحراس والاستعلاميون بحفاوة كبيرة ورحبوا بنا ترحيبا حاراً من باب المؤسسة حتى شعبة العلاقات،عرفنا بأنفسنا والمهمة التي جئنا من أجلها. قال الموظف مرحبا لدينا تعليمات موجهة الينا من قبل وزارة السياحة تؤكد أن اجراء اي تحقيق عن المتحف وآثاره المسروقة يجب أن يكون بعلمها وموافقتها ، قلنا كيف ؟ أجاب الموظف موضحا: ان توجه صحيفتكم كتابا الى هيأتنا تذكر فيه هدف المهمة ومن سيقوم بانجازها ونحن بدورنا سنخاطب ديوان وزارتنا لاستحصال الموافقة على اجراء التحقيق، حاولنا اقناع الموظف بإجراء التحقيق ،فجاءنا صوته قاطعا باتا: أخي لايجوز هذي تعليمات!!... خرجنا من الهيئة بأوراقنا بيضا عائدين الى الصحيفة ، و فعلا خاطبنا الهيئة بكتاب فيه من التحيات الطيبات راجين فيه تسهيل مهمتنا الصحفية ، بطبيعة الحال ، أجرينا مئات المهام في مختلف الموضوعات الحياتية والفكرية والسياسية والثقافية ووو، حتى أفل صيفنا اللاهب ولم تتكرم الهيئة الى الآن، حتى بمبادلتنا التحيات على الاقل!! ما اضطرنا الى أن نعيد كارثة سرقة الآثار على صفحات صحيفتنا على ماتوفر لدينا من معلومات ومصادروأخبار تناقلتها وسائل الاعلام المختلفة.

مكتنزات لا تقدر بثمن..

تعرضت مئات القطع الآثارية والتأريخية النادرة في العراق ، الى النهب واللصوصية من المتاحف والمكتبات الوطنية العراقية ، وكذلك من المواقع الآثرية المنتشرة على مساحة الوطن ، فقد أستهدفت هذه الذاكرة الحضارية والمعرفية ، عشية سقوط النظام السابق في نيسان ٢٠٠٣ منظومات وشبكات تجارة ، محلية واقليمية وعالمية ، وهربتها الى دول الجوار ومختفيات أخرى ما زلنا نجهلها الى الآن نحن العراقيين أصحاب الحق في هذه المكتنزات التي لا تقدر بأي ثمن، ويشير أحد التقارير الى أن هناك (١٣٤٧) قطعة اثرية نادرة تم ضبطها من بين (١٥٠٠٠) قطعة اثرية كانت مسجلة ، جزءا من مقتنيات المتحف الوطني العراقي في بغداد، اضافة الى بعض المواقع الآثرية التي جرى تنقيبها والتي سرقت عشية السقوط وبخاصة بعد أن هرب حراسها ، فضلا عن غياب الحماية السريعة والبديلة من قوات التحالف ، ويؤكد التقرير أن ثمة عمليات سرقة منظمة ، قادها نفر من الدائرة القريبة التي كانت تحيط بصدام ، وكان على رأس تلك الدائرة ، أرشد ياسين الذي كان يعد ((السمسار)) الاكبر لتجارة وتهريب الآثار العراقية ، وما حديث الشاحنات السودانية المبردة، ببعيد و التي كانت تأتي محملة باللحم السوداني (مساعدات للشعب) ثم لتعود محملة بعشرات القطع الآثارية ، مخبأة داخل ثلاجتها ومن ثم تتحول الى بورصات تجارة الآثار المحظورة، وما حصل للمتحف الوطني العراقي في بغداد بحسب ما أعلنته اليونسكو، حصل لاكثر من مائة موقع أثري عراقي يعود لفترات تأريخية متعددة في بغداد وبابل وسامراء وأور ونينوى ومدن تأريخية اخرى ، ربما مازالت تتعرض لعمليات سرقة وتخريب مستمرين، بينما وصل عدد القطع المسروقة الى اكثر من ١٧٠ ألف قطعة لم يضبط منها حتى الآن سوى مايقارب الثلاثين ألف قطعة ، داخل العراق والدول المجاورة وبعض الدول الاوربية ، ويشير التقرير الى أنه بحسب احصائية رسمية صدرت عام ٢٠٠٢ ، فان عدد القطع الآثارية المفقودة من المتاحف العراقية بلغت ٤٠٠٠ قطعة.

وبحسب التقرير ، أكدت دائرة الكمارك الاردنية العامة ،على لسان الناطق الاعلامي فيها عزمي مسامر، أن الدائرة اتخذت الاجراءات الفاعلة لمنع تهريب الآثار العراقية عبر الاردن واهمها استنفار ملاكات الدائرة العامة في المراكز الكمركية والمطارات وخاصة مركز كمرك الكرامة المقابل لطريبيل ، للعمل على ضبط الآثار وحشد التأييد في مجال مكافحة تهريب الآثار.

وفي حال ضبط أي قطعة أثرية فان دائرة الكمارك (كما أوضح مسامر) تحتفظ بتلك القطعة لحين الكشف عنها من قبل خبراء الآثار من دائرة الآثار العامة وتنظيم قضية كمركية بحق المتورطين قبل تسليمها الى دائرة الآثار العامة لحفظها لحين اعادتها الى العراق عندما تسمح الظروف بذلك.

متى كانت البداية..؟!

تؤكد أغلب الدلائل والحالات أن عمليات نهب الآثار العراقية وتهريبها ، بدأت بشكلها المنظم والمتطور الخطر بعد الحرب العراقية الايرانية، وغالبا ما كانت أصابع الاتهام توجه بشكل مباشر الى أرشد ياسين ، تحديدا ، لكن ما أن سقط النظام السياسي المباد، حتى تعرضت المتاحف العراقية على مساحة الوطن الى عمليات سلب ونهب لاهم المكتنزات الآثارية في سابقة لم يشهدها التأريخ العراقي على مر العصور، فقد تمت سرقة قطع آثارية نفيسة، تضم تماثيل وقطعا برونزية وأخرى مختلفة من حيث المادة والحجم والشكل والقيمة التأريخية.

ماذا حصل للآثار العراقية بعد سقوط النظام مباشرة؟

أعرب خبير آثار أمريكي عن اعتقاده بأنه قد بدأ بالفعل طرح القطع الأثرية التي نهبت من المتاحف العراقية للبيع حول العالم. وقال البروفيسور ماكجواير جيبسون أمام مؤتمر لعلماء الآثار نظمته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، اليونسكو، في العاصمة الفرنسية باريس: إن قطعاً أثرية يعتقد جيبسون أنها من مقتنيات المتاحف العراقية، عرضت للبيع في باريس وطهران. وقال خبراء الآثار إن المتاحف العراقية تعرضت لثلاثة أنواع مختلفة من السرقة، وهي أعمال التخريب والنهب الفردية، وسرقات لقطع أثرية محددة بتكليف من عصابات إجرامية، إضافة الى ما وصفوه بأعمال تخريب ثقافي متعمد بدوافع دينية أو سياسية. وعلى صعيد آخر، قدم المؤتمر مجموعة من التوصيات التي تهدف الى الحد من الأضرار الناتجة عن أعمال النهب التي يشهدها العراق.

وطالب المؤتمر بفرض حماية فورية على جميع المواقع ذات القيمة التاريخية، وبحظر الإتجار بالآثار العراقية، وإيفاد بعثة دولية إلى العراق في أقرب فرصة لتقييم حجم الخسائر..

وطالبت اليونسكو حكومات العالم بتقديم الدعم المادي لعمليات استعادة القطع الأثرية وترميمها. وكانت ايطاليا أولى الدول التي تبرعت من أجل ترميم الآثار، متعهدة بدفع ٢٥٤ ألف دولار لهذه العملية.

و قدم ثلاثة مستشارين ثقافيين للرئيس الامريكي جورج بوش استقالاتهم من مناصبهم احتجاجاعلى فشل القوات الامريكية في منع نهب متحف بغداد. وقال الرجال الثلاثة الذين استقالوا من احدى اللجان الثقافية بالبيت الابيض انه كان يجدر بالقوات الامريكية بذل جهد اكبر لحماية متحف الآثار العراقي. وقال احد المستشارين واسمه ريتشارد لانيير إن الولايات المتحدة تعرف ثمن النفط ولكنها لا تعرف قيمة الآثار التاريخية وقال ان الجنود الامريكيين اظهروا لامبالاة تامة حيال التراث الثقافي للعراق. يذكر أن أعمال النهب التي شهدها العراق دمرت مجموعات فريدة من آثار حضارات ما بين النهرين التي كانت تعرضها المتاحف. وكان المتحف الوطني العراق يضم بعض القطع الأثرية التي يعود عمرها لعشرة آلاف سنة مضت، من أولى الحضارات التي عرفها العالم. وتضمنت بعض المخطوطات التي كانت موجودة بالمتحف عرضا لتطور الكتابة والحساب والعجلة والزراعة بالاضافة الى مجموعة من الآثار تنتمي الى عهد السومريين والبابليين والآشوريين لاتقدر بثمن.

وكانت آثار من مدن بابل وأور ونينوى القديمة معروضة أيضا في المتحف. ومن بين الآثار المعروضة قيثارة فضية عمرها أربعة آلاف عام من أور، ومناضد ومصنوعات خزفية من حقب تاريخية مختلفة. كما نهب متحف الموصل وأشعلت النيران في المكتبة الإسلامية في بغداد و التي تضم مخطوطات أثرية من بينها واحدة من أقدم النسخ الموجودة من القرآن.

وقد وصل عدد المسروقات الى مئات الآلاف ما يصعب تعويضه في حال عدم الكشف عن أماكن اختفائها واعادتها الى رفوف المتاحف التي استباحها اللصوص والناهبون.